رفائيل فالك (*)

الصهيونية وبيولوجيا اليهود

تعريف

تتناول هذه المحاضرة للبروفسور رفائيل فالك حول "الصهيونية وبيولوجيا اليهود"، جانبا مثيرا من صناعة الرواية الصهيونية للتاريخ اليهودي، بالاستناد إلى نظريات علمية، مثل نظرية اليوجينية، أي تحسين النسل، وعلم الوراثة. ويقول البروفسور فالك، إنه بسبب "خطورة" بحثه في هذا السياق، فإن دار النشر "ماغنس"، التابعة للجامعة العبرية في القدس، رفضت نشر كتاب من تأليفه حول الموضوع.

ويستعرض فالك في محاضرته، التي ننشر هنا ترجمة لمقاطع واسعة منها، لأهميتها، تعاطي آباء الحركة الصهيونية مع النظريات العلمية المذكورة، من أجل إضفاء شرعية على المشروع الصهيوني، وخاصة جانبه الاستيطاني في فلسطين، منذ القرن التاسع عشر، والتمهيد لإقامة كيان خاص باليهود، بالاستناد إلى النظريات العرقية، التي انشغل بها قادة الصهيونية كثيرا في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

ويتعرض المحاضر إلى مسعى قيادة الحركة الصهيونية لتحسين النسل والإنسان اليهودي من الناحية البيولوجية، من خلال فرض أنظمة وقيود على هجرة اليهود إلى فلسطين، والدعوة إلى العمل البدني، وخاصة في الزراعة. وفي هذا السياق كرر قادة الحركة الصهيونية، وفي مقدمتهم زعيم الحركة دافيد بن غوريون، الذي أصبح لاحقا أول رئيس حكومة إسرائيلي، مزاعم بأن الفلاحين الفلسطينيين هم من نسل اليهود من فترة "خراب الهيكل" و"مملكة الحشمونائيم".

(*) هذه المحاضرة ألقيت في الجامعة العبرية– القدس في العام ٢٠٠٧. والبروفسور رفائيل فالك محاضر في هذه الجامعة ومتخصص في علم الوراثة وفلسفة علم الوراثة والبيولوجيا عموما.

وفيما لا تزال إسرائيل تسعى إلى إثبات ادعاءات بشأن وجود خصوصيات "جينية" تميز اليهود عن غيرهم، فإن البروفسور فالك يفند هذا الادعاء، ويؤكد أنه لا توجد أي إمكانية لإثبات أنه تجري في عروق اليهود دماء مختلفة عن دماء الشعوب الأخرى، بل إنه لا يمكن إثبات وجود أصل واحد، أو شجرة أنساب لجميع اليهود، ليخلص إلى أن "البحث البيولوجي – الوراثي لا يمكنه أن يحسم في مسألة الوحدة العرقية لأصل اليهود".

مدخل

أشكر منظمي برنامج «مدوّاع»، الذين تجرأوا على دعوتي للتحدث حول «الصهيونية وبيولوجيا اليهود». لعلكم لا تعرفون بماذا تورطتم. لكني أدركت بالطريق الصعبة، أن هناك من هم ليسوا مرتاحين لهذا الموضوع ولطريقة استعراضه. وعلى سبيل المثال، لأسفي، فإني لم أحظ بأن ترى دار النشر التابعة لجامعتي– دار النشر «ماغنس»– أن من الصواب أن تنشر الكتاب الذي ألفته. وأنتم ترون أنه صدر عن إطار آخر، وهي دار النشر «ريسلينغ».

وعلي أن أقول مسبقا أنني لست مؤرخا في مهنتي، ولا أدعي أنني أستعرض بحثا تاريخيا أو اجتماعيا منظما وتحليليا. وعلى الرغم من ذلك، فإني آمل أن أطرح أمامكم صورة متواصلة ومتماسكة لتطور الفكر البيولوجي وتاريخ الحركة القومية الصهيونية.

لعل أفضل طريقة لأن أختصر كلامي، هي من خلال قصة نُشرت في «وول ستريت جورنال»، قبل عامين. وقد كان هذا المقال، في الواقع، نقدا لكتابي. ويروي المراسل، إيفان غولدشطاين، قصة شخص اسمه جون هيدريخ، الذي جاء لزيارة [معسكر الإبادة النازي] أوشفيتس. وقد تأثر الرجل حتى أعماقه. وفي ما يشبه عملية تجل للوحي، فإنه وصل إلى وعي بأنه على الرغم من أنه طوال حياته عاش كأميركي مسيحي، إلا أنه يجري في عروقه دم يهودي. وقرر فحص هذا الأمر. ومثلما هو متبع في أيامنا، فقد أجرى فحص DNA. وكانت النتيجة أن جيناته الوراثية منتشرة جدا بين اليهود الأشكناز في بولندا. واستنادا إلى هذه المعطيات، توجه إلى السفارة الإسرائيلية طالبا الحصول على الجنسية الإسرائيلية بموجب قانون العودة. لكنه رفض الخضوع لعملية تهوّد كما طلبت السلطات منه، لأنه، بحسب ادعائه، ثبت من الناحية البيولوجية أنه يهودي. فلماذا عليه أن يخضع لعملية تهوّد؟

بالطبع لا توجد إجابة بيولوجية عن السؤال: من هو اليهودي؟ ولذلك، فإنه حتى عندما يبدو أن باستطاعتنا تمييز مجتمع يهودي كهذا أو ذاك من الناحية الجينية، يكون هذا التمييز بمصطلحات تقسيم إحصائي، ولا توجد أي إمكانية لتشخيص فرد على أنه يهودي.

أريد أن أقسم محاضرتي إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأول حول السياقات البيولوجية في بدايات الحركة الصهيونية السياسية؛ والجزء الثاني حول جهود المشروع الاستيطاني الصهيوني لتغيير بيولوجيا اليهود؛ وفي النهاية، الجزء الثالث، عن محاولات لإنشاء تاريخ لليهود بواسطة البحث البيولوجي.

السياقات البيولوجية في بدايات الحركة الصهيونية السياسية

كان القرن التاسع عشر قرن الاعتراف بحقوق الإنسان لكل إنسان كما هو، ونهضة الحركات القومية والاجتماعية. ومن الجهة الأخرى، كان هذا قرن الثورة العلمية والصناعية، التي أدت إلى تغيرات راديكالية في الاقتصاد والتنظيم الاجتماعي، على الأقل في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية. لكن هذا القرن كان مثيرا بالنسبة لأي بيولوجي أيضا. وقد تم اختراع المصطلح «بيولوجيا» في العام ١٨٠٠. وتم خلال هذا القرن وضع أسس النظريات الثلاث الأساسية المبنية عليها علوم الأحياء في أيامنا. وأقصد نظرية الخلية ونظرية الوراثة ونظرية النشوء والارتقاء. ورفع إسهام العلوم بشكل عام في الثورة الصناعية والاقتصادية، والتغيرات الاجتماعية التي رافقت ذلك، بشكل كبير من مكانة العلوم كأداة وكأن من شأنها كشف الحقيقة، بأل التعريف، وليس فقط فيما يتعلق بالعالم المادي، وإنما حول جوهر النظام الاجتماعي القائم أيضا. وهكذا على سبيل المثال، ليس فقط الثري فريدريخ ألفرد كروب، وإنما الاشتراكي كارل ماركس أيضا، أعجب بداروين [تشارلز داروين – واضع نظرية النشوء والارتقاء]. ويبدو أن داروين كان أقل إعجابا بهما، لكن هذا أمر آخر. كذلك أعجب به المفكر السياسي والاجتماعي، هربرت سبنسر، الذي طوّر المفهوم بأن النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي يخضع لمبادئ الانتقاء الطبيعي [أو البقاء للأصلح]، وكأن هذا أحد مبادئ علم الأحياء.

وحصلت اليونان خلال هذا القرن مثلا على استقلالها. وولدت ايطاليا من حربها من أجل التحرر. وكما تعلمون فإنه في العام ١٨٧١ اتحدت ألمانيا لتصبح دولة قومية واحدة. وكان هذا القرن الذي أسس فيه الفلاسفة الحجج حول الحقوق القومية، التي

فإذن، نحن نرى أن بالإمكان القول إن نشوء الحركة الصهيونية السياسية، كان بقدر كبير، بعد أن وافقوا على ادعاءات العداء للسامية، وفعلا، نحن اليهود عرق مختلف عن عرقكم، ويجري في عروقنا دم مختلف، ولونه مختلف عما في عروقكم. ولذلك، وبموجب مبادئكم أنتم، المعادون للسامية، ولكوننا كيانا بيولوجيا منفصلا، أو بمفعول الدم المختلف، فإنه يحق لنا أن تكون لنا أرض خاصة بنا. ومبدأ الدم والأرض هو المنطق الكامن، بقدر كبير، في أساس مطلبنا القومي ببلاد خاصة بنا.

كانت تستند إلى مبدأ الدم والأرض، والذي بموجبه فإن أساسي القومية هما الشراكة في الأصل البيولوجي وبلاد الموطن. وسنعود إلى ذلك بعد قليل. لكن التحولات السياسية والاجتماعية، على الأقل تلك التي حدثت في أوروبا الغربية وأميركا الشمالية، أدت إلى تحرير اليهود أيضا. لكن بالنسبة للكثيرين كان هذا التحرير محدودا، مثلما تشهد على ذلك رسالة مطلبية بعث بها يهودي من بلدة باسم ستولينغن، وهي بلدة أجدادي، اضطر إلى طلب رحمة حقيقية لإعفائه من ضريبة مفروضة على اليهود، لأنه بسبب سنه المتقدم وحالته الصحية المتدهورة فإنه محدود بالمتاجرة بالخرق في مكان سكناه، ولم يعد قادرا على التجول في البلدات المجاورة، وخصوصا لم يعد قادرا على دفع الضريبة المرتفعة التي تم فرضها على اليهود وألزم بها. وهناك عدد لا نهائي من الشهادات التي تدل على أن منح حقوق لليهود لم يخفض من الكراهية لليهود في البلدان المتنورة.

لكن لأن التمييز ضد اليهود على أساس ديانتهم وعاداتهم ومهنهم، تناقض مع أفكار التقدم المدني في تلك الفترة، فقد اخترعوا تسويغا جديدا لكراهية اليهود والتمييز ضدهم، وهو بيولوجيتهم. فاليهود هم أبناء عرق مختلف، العرق السامي، ولذلك فإنهم شيء آخر. ومثلما عبر عن ذلك الكاتب الشعبوي فيلهلم مار، في نهاية سنوات الثمانين، في كتابه «في الطريق لانتصار الألمانية على اليهودية»، وأدخل من خلاله مصطلحا جديدا إلى الخطاب العام، وهو مصطلح «العداء للسامية»، بمعنى الجوهر البيولوجي المختلف لليهود. فالعداء للسامية ليس مصطلحا قديما، وهو موجود منذ العام ١٨٨٠ تقريبا، ضد كون اليهود من عرق آخر، السامي.

وها نحن نرى أنه ليس هو فقط، وإنما منذ العام ١٨٦٢، مُني الزميل القريب من كارل ماركس، الاشتراكي موشيه هس، بالفشل في الاندماج الاجتماعي لليهود في المجتمع الأوروبي الغربي، وحتى أنه أمام اليقظة القومية توصل إلى عِبرة «روما والقدس». لقد ألّف كتابا بعنوان «روما والقدس»، أي أنه ليس التميز الاجتماعي والثقافي لليهود أدى إلى التمييز ضدهم في المجتمع الأوروبي، وإنما جوهرهم البيولوجي والعرقي. ومثلما رمزت روما إلى التحرر من إذلال الايطاليين، فإنه هكذا يجب أن تعبر القدس عن الحكم الذاتي لليهود. وكتب في «روما والقدس»: العرق اليهودي هو أحد الأعراق الأولى للإنسان التي حافظ أبناؤها على تكتلهم، رغم التغيرات المستمرة في محيطهم المناخي. وحتى أن النمط اليهودي حافظ على طهارته على مر الأجيال. والعرق اليهودي، الذي جرى قمعه وكاد أن يباد كليا على أيدي شعوب كثيرة في العالم القديم، كان سيختفي منذ زمن طويل في بحر الشعوب الهندية – الألمانية، لولا أنه لم يُنعم عليه بموهبة الحفاظ على نمطه المتميز وتكاثره في كافة الظروف...».

فإذن، نحن نرى أن بالإمكان القول إن نشوء الحركة الصهيونية السياسية، كان بقدر كبير، بعد أن وافقوا على ادعاءات العداء للسامية. وفعلا، نحن اليهود عرق مختلف عن عرقكم، ويجري في عروقنا دم مختلف، ولونه مختلف عما في عروقكم. ولذلك، وبموجب مبادئكم أنتم، المعادون للسامية، ولكوننا كيانا بيولوجيا منفصلا، أو بمفعول الدم المختلف، فإنه يحق لنا أن تكون لنا أرض خاصة بنا. ومبدأ الدم والأرض هو المنطق الكامن، بقدر كبير، في أساس مطلبنا القومي ببلاد خاصة بنا.

عبّر فلاديمير زئيف جابوتينسكي، مثلا، الذي كان متأثرا بـ»المستقبلية الايطالية»، عن ذلك في شبابه، في العام ١٩٠٤، في أحد مقالاته الشهيرة. وكتب: «قبل عدة سنوات سألت نفسي، من أين ينبع الشعور العميق بالهوية القومية؟ وكانت الإجابة الأولى التي تبادرت إلى ذهني هي أن أصله في تربية الفرد. لكن سرعان

ورأت الحركة الصهيونية التي وضعت هدفا أمامها بإعادة اليهود إلى الحالة الطبيعية مثل جميع الشعوب، منذ بداية طريقها، بالمشروع أداة من الدرجة الأولى من أجل تغيير بيولوجيا اليهود المتدهورة. ولأن غير الصهاينة رأوا أن تحسن أحوالهم يتم من خلال الاندماج الاجتماعي-الثقافي لليهود في البيئة المرموقة غير اليهودية، رأى الصهاينة، منذ بداية طريقهم، أن تحسين أحوال اليهود هو من خلال نشاط استصلاحي لليهود في أرض إسرائيل. وماكس نوردو، مثلا، هو أحد أنبياء الانحطاط البيولوجي للجنس البشري.

ما اتضح لي أن هذه الإجابة خاطئة من أساسها. وواضح أنه لا ينبغي البحث عن الشعور القومي في التربية، وإنما في شيء ما يسبق التربية. بماذا؟ بحثت في هذه المسألة بشكل عميق، وأجبت: في الدم. إن الشعور بالهوية القومية قابع في دم الإنسان، وفي نمطه المادي العرقي. ونحن لا نؤمن بأن الروح ليست مرتبطة بالجسد. ونؤمن أن طبيعة الإنسان مرتبطة قبل كل شيء ببنيته الجسدية. والبنية النفسية لأمة تعكس النمط الجسدي الأعلى بصدق وكمال يفوق حتى صدق وكمال طبيعة الفرد».

وإذا أردتم الجانب الآخر من المتراس، أي أفكارا مشابهة فيما يتعلق بروح الأمة، فإنها كانت لدى مارتن بوبر، الذي كان محرر صحيفة «دي فيلت» الناطقة باسم الحركة الصهيونية، وأصبح بعد ذلك نشطا في حركة «بريت شالوم». وقد عبر، في العام ١٩٢٠، عن مفهومه الفلسفي الشعبي الذي رأى في الهوية اليهودية، التي تستند إلى الدم والأرض، أنها واقعية، بهذه الكلمات: «تحافظ الأمة على تكتلها بواسطة عوامل أولية هي الدم والمصير وقوة الإبداع الثقافي. والمميزات العرقية ليست إلا نتاجا للأرضية والشروط المناخية للبنى الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع في مراحل الحياة والمصير التاريخي المشترك».

ويلاحظ علماء البيولوجيا بينكم أفكاره الماركسية والداروينية بشأن اقتناء ميزات الأمة. لكن بوبر لم يتطلع طبعا لأن يكون عالما بيولوجيا. ولذلك فإنه لا ينبغي مجادلته. لكنكم ترون هنا بالضبط كيف أنه داخل الإطار الأوروبي في هذه الفترة، استغلت الصهيونية، إذا أردتم، الوضع من أجل دفع أهدافها. لذلك فإني أريد أن أنتقل إلى الجزء الثاني مباشرة.

جهود المشروع الاستيطاني الصهيوني من أجل تغيير البيولوجيا اليهودية

قبل مئة عام تقريبا، في ٣ نيسان من العام ١٩٠٨، استوطن آرثر روبين في أرض إسرائيل، كمندوب عن اللجنة التنفيذية للكونغرس الصهيوني. وكان على مدار سنوات جيل كامل مسؤولا عن شراء الأراضي من أجل الاستيطان في البلاد. وتم التعبير عن توجهه الداروينى في كل نشاطه الاستيطاني، وفي كتبه طبعا، وعلى سبيل المثال كتابه «علم الاجتماع اليهودي»، الذي استخدم في سنوات الثلاثين كمرجع لمحاضراته في الجامعة العبرية. لكن قبل ذلك، في العام ١٩٠٢، وعندما كان لا يزال طالبا، فاز روبين بجائزة مرموقة عن نص من تأليفه، وكان موضوعه داروينيا – اجتماعيا بامتياز وهو «ماذا تعلمنا مبادئ نظرية النشوء والارتقاء عن تطور المبنى السياسي الداخلي وحول إقصاء الشعوب». ومنذ ذلك الحين ترافق المبادئ الداروينية روبين في جميع نشاطاته. وعلى سبيل المثال، وضع في العام ١٩٠٤ تسويغاته الإنسانية الشمولية «لإرساء الداروينية من أجل إقامة كيان سياسي منفصل لليهود». وهكذا قال: «لم يحافظ اليهود على مهاراتهم الطبيعية الكبيرة وحسب، وإنما هذه المهارات تزايدت من خلال عملية انتقائية. والنتيجة هي أن اليهودي في أيامنا أصبح، بمفاهيم معينة، نوعا بشريا قيّما بشكل متميز في كل ما يتعلق بالمهارات الفكرية. ويصعب على أمة أيا كانت أن تتفوق على اليهود. وهذه الحقيقة كافية من أجل أن يدعي اليهود بحقهم في وجود منفصل وصمودهم أمام أي محاولة لدمجهم [في مجتمعات أخرى]». إن هذه فكرة داروينية متميزة، ولكن من أجل أن يجعلها داروينية أكثر، أضاف هنا مقارنة مع النباتات. «ومثلما سيكون سخيفا أن تتم إبادة أنواع خاصة من الفاكهة من أجل إنتاج نوع واحد شامل، فإنه من السخافة

التطلع إلى محو فروق قومية».

ولكن خلافا لرأيه الإيجابي حيال المهارات الفكرية اليهودية الرفيعة، فقد نظر روبين بقلق إلى لياقتهم البدنية المتدنية. وعلى سبيل المثال، اهتم بشكل فعلي، في العام ١٩٢٠، بوضع نظام يمنع هجرة أفراد إلى البلاد بسبب حالتهم الصحية لأنهم سيشكلون عبئا على الييشوف الصغير أكثر مما سيسهمون في بناء البلاد. وقد اهتم بألا يهاجر أفراد كهؤلاء إلى البلاد، وحتى أنه أعادهم إلى خارج البلاد. وعموما، فإن الكثيرين من اليهود، كانوا يوافقون على ادعاءات المعادين للسامية بشأن الدونية البيولوجية لأبناء العرق اليهودي، رغم أنه وفقا لمفهومهم كان مصدر المشكلة، ليس أصولهم، وإنما نتيجة مباشرة لشكل التمييز والظلم الذي دفع اليهود إلى بيئة اقتصادية – اجتماعية غير صحية وتطوير ملامح غير مرغوب فيها. وقد عبر عن ذلك بقوة اليهودي هاينريش هاينه، الذي أصبح الشاعر الوطني الألماني، لدى افتتاح المستشفى الإسرائيلي في هامبورغ، في العام ١٨٤١، الذي تبرع به وأطلق عليه اسم عم هاينه، وكتب: «مستشفى ليهود محتاجين ومرضى، لأبناء البشرية الذين بؤسهم مثلث، المعذبين بثلاثة أمراض شريرة، الفقر والألم الجسدي واليهودية».

ورأت الحركة الصهيونية التي وضعت هدفا أمامها بإعادة اليهود إلى الحالة الطبيعية مثل جميع الشعوب، منذ بداية طريقها، بالمشروع أداة من الدرجة الأولى من أجل تغيير بيولوجيا اليهود المتدهورة. ولأن غير الصهاينة رأوا أن تحسن أحوالهم يتم من خلال الاندماج الاجتماعي – الثقافي لليهود في البيئة المرموقة غير اليهودية، رأى الصهاينة، منذ بداية طريقهم، أن تحسين أحوال اليهود هو من خلال نشاط استصلاحي لليهود في أرض إسرائيل. وماكس نوردو، مثلا، هو أحد أنبياء الانحطاط البيولوجي للجنس البشري. فقبل أن ينضم إلى هرتسل، وفي العام ١٨٩٥، أي قبل أربع سنوات من الكونغرس اليهودي الأول، نشر كتابا بعنوان «اندثار» وتحول فورا إلى أكثر الكتب مبيعا بلغات عديدة، وحذر فيه من الانحطاط المتسارع الذي يهدد الجنس البشري، بسبب التقدم التكنولوجي والاجتماعي، وما يرافق ذلك من تطور الصناعة والتمدن. وحذر مثلا من القطارات التي كانت تسافر في أيامه بسرعة «فائقة» تصل إلى ٣٥ كيلومترا في الساعة، والتي قد تسبب أضرارا خطيرة للعقل البشري. وذكر أيضا أن عمدة مدينة متوسطة في أيامه تعين عليه أن يتعامل مع سكان بحجم، كانوا يشكلون قبل جيل أو جيلين، سكان دولة بكاملها. وعندما انضم إلى هرتسل أصبح يرى بالمشروع الصهيوني أنه قبل أي شيء آخر هو مشروع لإنتاج يهودي جديد ومعافى بروحه وجسده. ولذلك فإن النشاط الرياضي من جهة، والعودة إلى الحرف الإنتاجية، مثل العمل في الأرض وأحضان الطبيعة، من الجهة الأخرى، هما من أهم الشعارات التي رافقت وجود الحركة الصهيونية منذ بداية طريقها.

وفعلا نحن نرى أن الصهاينة طبقوا، في بداية طريقهم، مبادئ عقيدة أو نظرية «اليوجينيا» [أي علم تحسين النسل]، التي وضعها فرانسيس جالتون، وسعت إلى منع تدهور بيولوجي مستقبلي للجنس البشري بواسطة اتباع سياسة اجتماعية تستند إلى ظواهر البصيرة العلمية. وقد ترجمت «اليوجينيا» أنها «البحث في عوامل الرقابة الاجتماعية التي تحسن أو تعوّق الميزات العرقية، المادية أو الروحانية للأجيال المستقبلية». فمثلا، أحد أساتذتي، أنجي مالر، ادعى لاحقا، أن البصيرة العلمية تؤدي إلى استنتاجات بشأن مستقبل الجنس البشري بعد قرن وربما حتى بعد عشرة أجيال إذا توفرت لدينا هذه البصيرة العلمية، والعمل بموجب هذه البصيرة هو واجب أخلاقي. أي أن العلم يمنحنا واجبات نابعة من مجرد فهم البصيرة التي يجلبها.

وفي العام ١٩١٨، نشر الطبيب اليهودي والصهيوني في وارسو، شنيئور زلمان بيخوفسكي، مقالا مطولا بالعبرية في جريدة «هَتْكوفا» بعنوان «الأمراض العصبية واليوجينيا لدى اليهود». وقال فيه: «إن هذا الرأي بأن اليهود يميلون إلى الإصابة بأمراض عصبية أكثر من أي أمة أخرى، وأن العرق العبري كله أصلا آخذ بالانحطاط، انحطاط الجسد والروح، هذا الرأي انتشر ليس فقط في المقالات الشعبوية المنتشرة، وإنما في المقالات العلمية أيضا نصادف وجهات نظر كهذه على أنها أفكار مقبولة ولم يعد بالإمكان التشكيك فيها أبدا. وصدّق أشهر الباحثين في نظرية علم الأعصاب على هذه الجملة». أي أنه برأيه، الأمراض العصبية التي تصيب يهود أوروبا الشرقية ليست وراثية وإنما هي نتيجة لظروف الحياة والملاحقات والمعاناة التي عاشها اليهود. إذ أدى العيش لجيل واحد في الولايات المتحدة حقيقة إلى اختفاء هذه الأمراض بين المهاجرين اليهود، وظهرت مكانها أمراض السكري والزهري بينهم.

لكن على الصهاينة القضاء على الأمراض الوراثية بكافة الوسائل، وبضمنها قوانين هجرة صارمة. وهكذا كتب هذا الصهيوني: «إن نهضة الشعب العبري في أرضه ستكون ممكنة فقط بشرط أن المادة البشرية التي ستسافر إلى هناك ستكون معافاة. وبهذا المفهوم ينبغي في البداية استخدام وسائل صارمة، مثل القانون ضد الدخول إلى البلاد المتبع في الولايات المتحدة. ويكتسب الأمر أهمية، عندما يبدأ الصهاينة بالنظر إلى الزواج على أنه ليس فعلا شخصيا، يفعل الإنسان من خلاله كل ما

هذا يعني أن الحركة الصهيونية، وخاصة الأرض إسرائيليين في تلك الفترة، تتحدث هنا بصورة واضحة جدا، حول ضرورة التحسين البيولوجي لليهود وإنقاذ هوية الرجل اليهودي والهوية التي مرّت بأجيال من الانحطاط البيولوجي. لكن بالطبع، كل هذا استمر ربما حتى العام ١٩٤٠. لكن المفهوم تغير من النقيض إلى النقيض في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والتفسير المرعب والمشوه الذي فعله النازيون للنظرية اليوجينية في إطار نظريتهم العرقية. ولذلك تحول استخدام تعبير اليوجينيا في أوساط كثيرة إلى تابو. وعلى الرغم من أنه من الناحية المبدئية لم تتغير الأفكار والبصيرة، وبقيت ذات أهمية كبيرة.

يحلو له، وإنما على أنه فعل عام مهم، ومنوط به مستقبل العرق وازدهار الشعب وآماله. الجيل القادم». انتبهوا، لقد خصصت الآداب اليوجينية دراسات كثيرة لهذه المسألة. «وثمة ضرورة لأن تقتني الآداب الصهيونية معرفة مناسبة في هذه المسألة». أي أننا نرى هنا أنه يريد أن يدخل قوانين تحدد الهجرة اليهودية. وكان يهود روسيا، مثلا، يعانون كثيرا في تلك الفترة من قوانين الهجرة الأميركية. ولكنه يقول إن على الصهاينة في أرض إسرائيل اتباع قوانين هجرة مشابهة كالتي تتبعها الولايات المتحدة.

وهناك يهودي آخر، هو ردكليف نتان سلمان، في انكلترا، وكان لسنوات طويلة عضوا في مجلس أمناء الجامعة العبرية، كان مخلصا لمهمات نظرية اليوجينيا وبشكل خاص لدورها في نهضة الشعب اليهودي. وقد ادعى، مثلا، أنه من خلال النظر إلى وجه شخص ما والخطوط في وجهه بإمكانه أن يفرق بين اليهودي وغير اليهودي. وقد بحث في الزيجات المختلطة بين اليهود وغير اليهود وتوصل إلى الاستنتاج بأن جينا واحدا هو المسؤول عن الفرق في المظهر. وكان سلمان هذا، خلال الحرب العالمية الأولى، طبيب الكتائب العبرية في أرض إسرائيل. وهنا، أعجب كثيرا بالجسد السليم، «غير اليهودي»، وبالمظهر المنيع لأبناء الموشافوت [أي القرى الزراعية اليهودية في فلسطين]، ذوي الشعر الفاتح اللون، «وحتى أن هؤلاء الشبان فازوا على منتخب الجيش البريطاني لكرة القدم». إنه يهلل للتقدم البيولوجي غير العادي.

لقد باتت اليوجينيا مصطلحا مركزيا في وصف الحياة اليهودية في الماضي والنظر إلى المستقبل، بين أوساط يهودية كثيرة. ولذلك فإنه ليس عجيبا أن الأطباء والمعلمين في أرض إسرائيل نظروا إلى المشروع الاستيطاني، الذي شاركوا فيه، على أنه عملية يوجينية [تحسين نسل] للشعب اليهودي. والمربي والناقد، الدكتور يسرائيل روبين، الذي أسموه بعد ذلك بـ«ريفكائي»، لأنه بحث في مجلة «موزنايم»، في العام ١٩٣٤، في موضوع «جمع الشتات من الناحية اليوجينية»، توجه في مقاله إلى «الأطباء والمعلمين»: «هذا الاقتران، الذي صنعته لمقالتي هذه، اقتران 'الأطباء والمعلمين' سوية، ليس مجرد 'حجة جيدة'، وإنما هو ضروري، لدى البحث في تحسين العرق. وهذه الشراكة مهمة للغاية في حياتنا في البلاد، وهي في جوهرها تشكل جهدا قوميا جريئا بالمفهوم اليوجيني... ليس فقط مشكلة استيطان أرض إسرائيل، وإنما في جميع المقالات والمحاولات الكثيرة والمتشعبة، على أشكالها، في شتاتنا من أجل نقل أمتنا إلى مسار حياة آخر ومختلف عن هذا الذي سِرنا أو عرجنا فيه على مدار أجيال طويلة. ويجب أن نرى نوى يوجينية بكل تأكيد... مصلحة الأمة تأمرنا في كل مكان: اذهبوا وتحسنوا، واذهبوا واسعوا لإنتاج نوع يهودي جديد ومتطور ومصحح».

إنه لا يقول بالتحديد ما يتوجب علينا فعله. لكن الطبيب الدكتور يوسف مئير، الذي كان رئيس صندوق المرضى والمدير العام الأول لوزارة الصحة الإسرائيلية، كتب في العام ١٩٣٣ في كراسة إرشاد للأم والطفل، ووضع توجيهات أوضح: «من يسمح له بإنجاب أولاد؟ خلال بحثي عن إجابة صحيحة على هذا السؤال، لا بد من تناول اليوجينيا، علم تحسين العرق والحفاظ عليه من الانحطاط... وها هو شعبنا عاد إلى الانبعاث، إلى حياة طبيعية في أرض الآباء. أليس من واجبنا الاهتمام بأن يكون لدينا أبناء معافون وسالمون في الجسد والروح؟ وبالنسبة لنا، يوجد لليوجينيا عموما، وللاحتراس من انتقال أمراض وراثية خصوصا، قيمة أكبر من باقي الشعوب! ويتوجب على الأطباء والرياضيين والسياسيين القيام بدعاية واسعة لهذه الفكرة: لا تنجبوا أولادا إذا كنتم غير متأكدين من أنهم سيكونون أصحاء في الجسد والروح!».

هذا يعني أن الحركة الصهيونية، وخاصة الأرض إسرائيليين في تلك الفترة، تتحدث هنا بصورة واضحة جدا، حول ضرورة التحسين البيولوجي لليهود وإنقاذ هوية الرجل اليهودي والهوية

التي مرّت بأجيال من الانحطاط البيولوجي. لكن بالطبع، كل هذا استمر ربما حتى العام ١٩٤٠. لكن المفهوم تغير من النقيض إلى النقيض في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والتفسير المرعب والمشوه الذي فعله النازيون للنظرية اليوجينية في إطار نظريتهم العرقية. ولذلك تحول استخدام تعبير اليوجينيا في أوساط كثيرة إلى تابو. وعلى الرغم من أنه من الناحية المبدئية لم تتغير الأفكار والبصيرة، وبقيت ذات أهمية كبيرة. وهنا أريد أن أنتقل إلى الجزء الأخير من المحاضرة.

محاولات لإنشاء تاريخ لليهود بواسطة البحث البيولوجي

بعد أن حقق الشعب اليهودي حلمه بإقامة دولة خاصة به، وفيما تم توجيه الجهود الصهيونية من أجل الحفاظ على جوهر الدولة ومضمونها، طرحت حركة الهجرة الكبيرة أمام العلماء فرصة نادرة لاختبار تأثير هجرة سكان كانوا في عزلة ثقافية نسبية منذ أجيال كثيرة. وكان بالإمكان هذه المرة القيام بهذه التجارب وهذه الأبحاث ليس على فئران أو ذباب صغير وليس على كائنات حية أخرى، وإنما على بني البشر أنفسهم مباشرة. وخصصت أستاذتي، البروفسور إليشيفاع غولدشميدت، مؤتمرا خاصا لذلك، في بداية سنوات الستين، بعنوان «علم الوراثة لمجموعات سكانية مهاجرة ومعزولة». وبالطبع فإن حركة الهجرة اليهودية الكبيرة التي جلبت إلى البلاد أفرادا ومجتمعات من جميع أصقاع العالم، شددت على مسألة الهوية أو القرابة البيولوجية لأبناء مجتمعات تم من الناحيتين الثقافية والاجتماعية استقبالهم، بهذا القدر أو ذاك، على أنهم يهود شرعيون. لذلك، ما هي العلاقة البيولوجية بين هذه المجتمعات؟ وعلى ضوء ذلك، هل يمكّننا علم الوراثة من تعقب أثر تاريخ اليهود ورسم شجرة أنساب لليهود منذ فترة أبينا إبراهيم، أو على الأقل منذ فترة مملكة الحشمونائيم؟

حاول الدكتور حاييم شيبا، بهذا المفهوم، تطوير فرع جديد في بحث لإسناد التاريخ إلى علم الوراثة. وعلى سبيل المثال، اتضح له أنه ينتشر بين القادمين من سردينيا مركب جيني مرتبط بأمراض الدم المنتشرة جدا بين يهود الشرق أيضا. ولقد شخّص شيبا لدى سكان سردينيا آثار المنفيين القدماء من يهودا [أي منطقة القدس]. وقد كتب مثلا: «لماذا لا نجد، وعمليا ينقص، لدى اليهود الأوروبيين – الأشكناز – الـG6PD (وهو الجين الملتصق بالكروموزوم X)؟». وأضاف: "إذا قرأت بتمعن [كتاب] 'تاريخ اليهود' ليوسيفوس فيلافيوس [من القرن الأول الميلادي]، ستكتشف أن الرومان نفوا الذكور فقط، الذين تم بيعهم كعبيد وألقي بهم في حلبة الأسود... وهكذا فإنه في ظروف العبودية اضطر الذكور الساميون لأن يتزوجوا، ويهوّدوا طبعا الإناث من بنات بيفيت. لذلك فإن جوهر اليهود الذين هاجروا إلى أوروبا... لم ينقلوا أبدا الجين المتحول الناقص في G6PD إلى نسلهم من الذكور". [المحاضر يسخر] وها أنتم ترون أنه يضع هنا "ترجمة علمية" لقصص تاريخية ويحاول العثور على اليهود في أماكن شتى.

من هذه الناحية، ربما سيكون مثيرا، متابعة البحث الديمغرافي الذي وضعه هلموت ميوزام. وكانت النقطة التي انطلق منها هي أن جميع اليهود شكلوا مجموعة سكانية من أصل واحد، وانقسمت إلى مجموعات شتاتية مختلفة، وكل واحدة منها، رغم أنها حافظت على خاصياتها البيولوجية، تضمنت، بقدر معين، الجينات التي تميزت بها المجموعة السكانية التي سكنت بينها. وإذا تتبعنا تقسيم أنواع الدم لدى المجموعات السكانية المختلفة، فسيكون لديهم نوع الدم A ونوع الدم B. وتوجد مجموعات سكانية مختلفة وغير يهودية ولديها أنواع دم مختلطة لنوعي الدم هذين A وB. وإذا تتبعنا المجموعات السكانية اليهودية، سنرى أنها مشابهة ولكنها مختلفة عن المجموعات السكانية غير اليهودية. وكأن جميع المجموعات السكانية اليهودية تجذب إلى مكان آخر، وكأنها مشابهة للمجموعات السكانية غير اليهودية، ولكنها تجذب إلى مكان آخر. وإذا انتبهتم إلى أنهم جاؤوا من مكان آخر واندمجوا بهذا القدر أو ذاك في المجموعات السكانية في الأماكن الأخرى، فإن هذا الجذب يؤشر لنا على إمكانية استقراء، أي الوصول إلى شيء مشترك لكل هذه المجموعات السكانية. وهذا الشيء هو بالطبع تركيبة مجموعات الدم لدى المجموعة السكانية اليهودية القديمة. وهذه فكرة رائعة وجميلة وجيدة، من أجل العثور على مبنى أنواع دم اليهود، إذا كانت فرضية أصلهم المشترك صحيحة، وإذا كانت فرضيته صحيحة. وعمليا فإن نتائج بحثه أدت إلى هذه النتيجة. ولكن لا توجد هنا أي إمكانية لإنشاء أصل مشترك، لكن رغم ذلك فإننا نرى أن ميوزام يخصص أربع صفحات أخرى من مقاله لمناقشة لماذا كان بالإمكان قبول هذه النتائج، رغم أن نظرية الأصل المشترك موجودة في منزلة دنيا.

لكن منذ الأبحاث التي وضعها شيبا وميوزام، تطورت أساليب البحث بشكل كبير. وإذا كانت هناك ظروف بيئية تفضل نوعا معينا من الدم، لنقل أنه يوجد مناخ معين أو جرثومة معينة في بلاد معينة، عندها قد يكون هناك، بالطبع، ارتفاع في انتشار المركب الجيني رغم أنه لا يوجد لها أصل مشترك.

لكن لعل الأبحاث الأكثر شهرة هي تلك التي وجدت المشترك بين

المجتمعات اليهودية في تركيبة الكروموزوم Y. إذ ينتقل الكروموزوم Y من الأب إلى جميع أبنائه ولكن ليس إلى بناته. وعلى ما يبدو أن قيمته في عملية الانتقاء الطبيعي معدومة. ويتضح أن قرابة الدم أو قرابة الـDNA بين اليهود في مجتمعات مختلفة كبيرة جدا. وقد نشأت هنا ، كما يظهر، مجموعة كبيرة جدا من اليهود وسكان الشرق الأوسط الآخرين، وهم يختلفون عن الأوروبيين والإفريقيين. ولا شك في أنه من ناحية التقسيم الوراثي، فإن المجموعات السكانية اليهودية متقاربة جدا، ومتشابهة مع بعضها، وهي متشابهة أيضا مع المجموعات السكانية المختلفة في الشرق الأوسط. والفروق هي كمية وليست نوعية. ويسأل السؤال طبعا، ما معنى هذا التقارب؟

تبني برامج كمبيوتر متطورة من هذه المعطيات أشجار أنساب وتشير إلى التشعبات وموعد حدوثها. لكن هذه البرامج مبرمجة من أجل بناء أشجار أنساب كهذه على افتراض أنه كان يوجد فعلا في تاريخ المجموعات السكانية أصل مشترك وتشعّب. وتعطي هذه البرامج أفضل شجرة نسب يمكن استخراجها من المعطيات، استنادا إلى فرضية الأصل المشترك. لكن بهذا لا يوجد دليل طبعا على أنه كان هناك أصل مشترك.

وثمة إمكانية أخرى، وهي أنه لم يكن أمامنا شجرة ذات تشعبات أحادية الاتجاه، وإنما هذه التشعبات نمت، بمعنى أنها عبارة عن علاقات شائكة ومتعددة الاتجاهات، أفقيا وعموديا. وتدل المعطيات التاريخية والديمغرافية على أنه فعلا كانت هناك علاقات أفقية واجتماعية ثقافية ودينية بين مجتمعات يهودية، وحتى أن علاقات كهذه بين مجتمعات متباعدة عن بعضها جدا لم تكن أمرا نادرا. فيهود اليمن، مثلا، كانوا على علاقة دائمة مع يهود بابل. ومكث مسافرون وحاخامون من هذا المجتمع أو ذاك لفترات طويلة عند مجتمع آخر. وبالإمكان الافتراض أنهم لم يعيشوا دائما حياة زهد. ولذلك فإنه جائز أن القرابة الوراثية بين المجتمعات، هي، جزئيا على الأقل، نتيجة لعلاقات ثقافية. فمثلا، أحضر أحد طلابي، قبل سنتين، مقالا كتبته السيدة كيمريتش (كيمحي) تسرفاتي وعدد من الأشخاص. وقد لفت الطالب انتباهي إلى أن كيمحي هو اسم مثقف وعالم ألسنيات من شمال إفريقيا ووصل في نهاية حياته إلى أوروبا الشرقية. وفي المقابل فإن تسرفاتي هو اسم عائلة يهودية مغربية الأصول من نسل الحاخام حام، رئيس مجتمعات أشكنازي. أي أننا نرى أنه يوجد في التاريخ صلات دم، ليس عن طريق التشعبات وإنما عن طريق علاقات أفقية. وإذا كان الأمر كذلك فإنه توجد مشكلة إذن. فقد حاولت صحيفة "هآرتس" في الانترنت، مؤخرا، طرح جهاز آخر لإسناد الأصل المشترك لليهود أينما كانوا. لقد طرحت جهاز – برنامج ما اسمه "بابيليون"، وهو برنامج يرسم العلاقات العائلية، التي يفترض أن تربط في نهاية الأمر جميع المجتمعات والسلالات للعائلات بشجرة واحدة كبيرة. [ساخرا] ربما تنجح هذه البرامج في المكان الذي لم ينجح فيه العلماء.

ويتلاءم المبنى الشائك للعلاقات بين المجتمعات في أيامنا، أيضا مع النتائج حول القرابة الكبيرة للتركيبة الوراثية للمجتمعات اليهودية وبين المجموعات السكانية في الشرق الأدنى. وقد علمت مؤخرا من مقال لعالم الآثار ماغين بروشي، أنه في العام ١٨٧٤، طرح الباحث الفرنسي كليرمون غانو، فرضية مفادها أن لدى الفلاحين الفلسطينيين في عصره توجد آثار نسل المجتمع اليهودي من فترة خراب الهيكل. أي أن بعضهم هم من نسل رجال مملكة الحشمونائيم، الذين لم يتم نفيهم من أرضهم. وقد اضطروا على مر الأجيال إلى اعتناق الدين الإسلامي.

وقد طرح هذا الاعتقاد القيادي في منظمة "بيلو" [الصهيونية]، يسرائيل بيلكينت، في العام ١٨٩٢، وتبنته لاحقا شخصيات عظيمة وكبيرة، مثل دوف بار بورخوف، أوسيشكين، روبين، أحاد هعام وغيرهم. وتجدد هذا الطرح بفضل دافيد بن غوريون، الذي كتب، بداية بالاشتراك مع إسحق بن تسفي، وبعد ذلك، في العام ١٩١٧، كتب بنفسه مقالا بعنوان "من أجل استيضاح أصل الفلاحين": "بإمكانكم أن تروا أن القبائل العربية التي انتشرت في أرض إسرائيل منذ عهد الخليفة عمر لم تقضِ على كل المجتمع الزراعي الذي وجدوه حينذاك في البلاد... ومعظم الفلاحين في عصرنا هم من نسل أولئك الفلاحين الذين وجدهم العرب في البلاد في القرن السابع. ولم يكن المجتمع الزراعي الذي وجده العرب في أرض إسرائيل في القرن السابع سوى المجتمع العبري الذي بقي في أرضه".

لذلك أعتقد أنه، في خلاصة الأمر، بالإمكان القول إن الكثيرين منا كانوا يريدون أن يؤمنوا أننا جميعا عائلة واحدة. وثمة أهمية للتأكيد أن البحث البيولوجي – الوراثي لا يمكنه أن يحسم في مسألة الوحدة العرقية لأصل اليهود، سواء أكان الحديث عن الشجرة المتشعبة أم عن النموذج الشائك الذي يرسل أذرعه في جميع الاتجاهات. وحتى أنه ليس بإمكاننا أن نقرر بشأن الصلة مع شعوب الشرق الأدنى، رغم المطالب الحازمة للضالعين في الأمر. ولذلك، مثلما هي حال المسائل العلمية الأخرى، فإن النتائج متسقة مع فرضيات مختلفة. ورغم خيبة أملكم، فإنه ينبغي الموافقة على قدر من انعدام اليقين الذي بقي على حاله.

[مترجم عن العبرية. ترجمة بلال ضاهر]